شجون ودروس ...

للأستاذ إسماعيل حمدى

في مطلع العدد ٤٧١ من (الرسالة) العزيزة ، وفى «شجون» قريعها الدَّارع الدكتور زكى مبارك ، درس قيِّم تفضل به على من كتب فى « اتجاه رجال الأدب فى العصر الحديث » وأحب الدكتور أن يكون فى هذا الدرس على إيجازه بلاغ لمن يتورط فى الكتابة والنشر وهو مفتقر إلى محض سلامة النظرة ، فضلاً عن قوتها وحدتها واستوائها جميعاً

والدكتور رغم كفاية الفطنة والخبرة لديه من طول « ما ابتلى بزمانه وأهل زمانه » لا يزال — بمعجزةٍ ما — يطمع فى أن يعترف متورطٌ بتورطه ، أو يتعلم مخطئٌ من خطئه ، وخاصة فى هذه الديار !

لا يا سيدى ، عد إلى آلاف العقائد التى لا تستطيع أن تحصيها ... آلاف العقائد التى كونتها ولا ريب عن الناس منذ احتككت بهم ، وعالجت من حقهم وباطلهم ، ورشدهم وسفههم ، فأنت واجدٌ فيها ما يردك إلى اليأس المطلق من هذا الطمع الذى طمعت ، إلا إذا ضربت بلا رحمة ، وانهالت ضرباتك على المقاتل فوجد صريعك مسَّ الأذى وفرط الألم ، وبات بين فرار الهارب وصراخ التائب ، وأيهما اختار فحسبنا لتستأنف القافلة المسير ، ويبلغ الكتاب أجَلَه

نعم . فما ينبغى أن نتسلَّى بالاقتراح على أحد أن ينحنى على منطقه فيضع شيئاً مكان شىء ، ويتخير مادة دون مادة ؛ فحسب الطفل لكى يتلىَ رأسه الضئيل بالعناد أن نقترح عليه تغيير اللعبة التى فى يده ؛ فإن ذلك أحرى أن يزيده تشبثاً بها وتوهما فيها ، وشروداً في أخيلته حولها

ولا نودُّ المضىَّ إلى بعيد فى العتب على الدكتور ، فقد يجد الناظر إلى درسه الموجز ما يشغله بشئون أخر :

ذلك أنه يرى التودُّد إلى الجماهير تهمة ظالمة يبرأ منها كرام الرجال الذين كتبوا فى الإسلام ونبيه ، ويستظهر لبراءتهم بما في الدراسات الفذة التى قدموها من روح يضطرم بالشعور والذوق والإيمان وسائر الذخائر التى لم يألف تجار « الزُّيوف » أن يتعاملوا بها مع « الجمهور »

إن فى إحساس الدكتور بضرورة التبرئة لأولئك الأساتذة الكرام هفوة أخرى — ويبدو أننى رجعت إلى عتابه — إذ كان إحساسه هذا ينطوى بداهة على التسليم بأن التودد إلى الجماهير تهمة ! وما يتفاقم الغرور عند الصغير بأكثر من أن يكتشف فى منطق الكبير نحواً من الموافقة على بعض أوهامه ، ولن يتواضع هذا الغرور بعد ذلك حين يفزع الدكتور إلى واجب التبرئة لزملائه وفاء لهم وللحق العظيم فى دينه وتراث قومه

ولسنا ندرى لم يكون التودد إلى الجماهير — إذا افترضنا وقوعه — تهمة تثير الأنفة ، وتحرِّض على المقاومة ، إلا أن يكون هذا خوفاً فى موطن الأمن ، وخجلاً فى مقام الزهو ، لا يجملان بالقلب الكبير والجبين الفخور !

سوف لا نحاكم الدكتور إلى غير « شجونه » فى نفس العدد من (الرسالة) ، فليقرأ فى آخرها هذه الكلمات من نشيده فى حب وطنه : « ولو عانت كبار الشعوب ما عانيت لشالت كفتها فى ميزان التاريخ ، فكيف استطعت أنت برغم ما عانيت مصدر العقل فى الشرق ، وأن تهتدى بنورك فى اللغة والدين مئات الملايين ؟ ... لن تراني إلا حيث تحب ، ولن يراني أعداؤك إلا حيث يكرهون ، ولو زعموا أنهم فى طهر ملائكة السماء » . ما معنى هذا ؟ معناه أنها وقفة شريفة لابن شريف بين يدى شعبه الذى لا يزال يقود بمطراً ضخماً من العالم فى اللغة

طبع أوربة فى ص ١٩٨ ، ليتأكد القارئ أنه كان من أقدس الواجبات على الناشرين أن يراجعا هذين السفرين وغيرهما من المطبوعات ، وإلا فعملهما هذا جاء خداجاً ، ويحتاج إلى إعادة النظر فى ما طبعاه ، ومقابلته بما ذكرناه لهما

وعلى كل ، فإننا نشكرهما كل الشكر على ما قاما به من إخراج هذه الدرة الثمينة من مكمنها ، وعرضها على الناطقين بالضاد بهذه الحلى البديعة ، والوشى الجاذب للأنظار ، والمشوِّق لاقتنائه ، ووضعه فى مصف كنوز الأقدمين ، ورفع منزلتهم بين علماء الأقوام المختلفة وكتَّابهم العظماء ، ومصنفيهم البلغاء .

ونحن نتوقع أن يكون طبع المجلد الثالث بعناية أعظم وتحقيق بالغ أقصى المنى ، ومنه تعالى التوفيق

(بغداد) الأب أنستاس مارى الكرملى
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

والدين ، والفكر ، وطراز الحياة جملة ؛ فهو يعلن العصبية في زمن العصبية الآكلة ، ويجدد البيعة في زمن الإخاء في السلاح أن يكون لقومه قرة أعين ، ولأعدائهم هولة حلم ، ثم ماذا ؟ ثم معناه أن الضلال القديم الذي طالما اغتال عقولاً في هذه البلاد فذهبت تفترى في الأدب مذاهب ، وترتجل في الفكر طرائق ، مهما نبا ذلك عن روح الشعب الحقيقية ، ومهما تمزقت بذلك روابطنا بمن يحبوننا ، ويصطفون من حولنا ، من الأمة العربية الكبرى ، والكتلة المسلمة العظمى ؛ هذا الضلال ينبغي أن تنقشع بقاياه نوًا وإلى غير رجعة ، ومن شاء أن يقول ، ومن شاء أن يفكر ، ومن شاء أن يعمل فليأخذ مكانه الطبيعي تحت هذه الراية والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ؛ وإلا فهو خائن يطوَّق بعاره ، ومجرم يشار إلى سيماه ، وعدو لا نسلم عليه تسليما ، وإنما نثأر منه ثأراً ، ونسه في التراب ، وننفض من غباره الأيدي

كأنَّ الدكتور يخطبنا هذه الخطبة تماماً حين هتف بذلك المقطع الذي نقلناه من نشيده ، فكيف إذن نقبل منه التسليم بأن في التودد إلى الشعب ما يزري ، وهو لا يرى إلا أن يكون رجل الفكر والأدب « رجل الشعب » أولاً : في رأسه من خواطره ، وفي صدره من عقائده ، وفي ضميره من أشواقه ...

فإذا كانت أشواق هذا الشعب الروحية والثقافية والاجتماعية ظاهرة ظهوراً صارخاً ، بحيث لا تخطئها إلا العين المغلقة ، ولا يمر بها ظرف أو مناسبة مواتية ، إلا أثبتت بظهورها ذاك أنها ليست موجودة ومعروفة فحسب ، بل وأصيلة ونامية معاً ، لأنها تنفجر من تاريخ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، بملء ما في هذا التاريخ من أقدار كبيرة ، وأطوار عميقة ، لم تكن قط خرافة يزيِّفها لفظ ، ولا سامراً يفضّه صوت ، ولأنها تدور مع الدم في أجساد الملايين الذين تضرب ظلالهم شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، على قارتين ، وثلاثة بحار ، وعديد من الأنهار ، وتقع جباههم منذ هذا العمر المبارك على تلك الربوع والبطاح العريضة ، ساجده لله في كل يوم خمس مرات ... نعم ، وإذا كانت هذه الأشواق هي التي تملي قواعدها الخاصة لنهضة هذا الشعب بنفسه وبالصفوف الرائعة المتراصة من حوله ، وهي التي تعيّن الأفق الذي يتراءى إليه نظر الشعب قويّ التحديق ، شديد الخاليق ... إذا كان ذلك كله كما نحس ، وكما لا نشك ، فما بد من أن يصطلي كل أديب ، وكل مفكر ، وكل منتج ، بقبس من تلك الأشواق الحارة الخالدة . فهذا القبس وحده هو الذي يمده بالصواب في تصوره لنوع النهضة المنتظرة والمحتومة معاً ، ويمده بالقدرة على المشاركة الفذة في إقامة الصرح وتأثيله ، وبدونه لا يكون إلا متمسفاً حائراً ، لا يبرح في حيرة وتعسف ، يدور حول نفسه ، ويكذب أبداً على نفسه ، حتى تكبّه عثرة ، أو تلقفه هاوية ، وبدونه لا يكون نسبه في أدباء الشعب ودعواه العمل باسم الشعب ، وعيشه على مرافق الشعب ، إلا تزويراً ونفاقاً وسرقة ، وما لا تُعِدُّه اللغة للتشريف ، ولكن للسباب

ثم ما هو الأدب ؟ أليس هو : كالعلم ، والفن ، وكالاقتصاد نفسه ، قوة من القوى المختلفة في الحياة العامة ، ينبغي أن تهدف كلها صوب غايات الشعب العليا ؛ وفي خلال سيرها تلقاء هذه الغايات ، ينبغي أن تستفتي حاجاته الحقيقية ، وتستعين بأحلامه الروحية على ضمان النجاح ، وسرعته أيضاً ؟

هذا الذي نقرره من بدائه كل إصلاح وكل نهضة ، وليس من فنهما المعقد ، ولا من كهانتهما الغامضة ، حتى يكون ثم موضع للجدل أو الحذلقة

فمن يحاول عزل « الأدب » عن كافة القوى الأخرى المتضامنة في الحياة العامة ، ويشككه في واجب تضامنه مع تلك القوى ، وارتكازه أبداً إلى ضمائر الشعب وأحلامه القدسية ، ويزعم أن في عودة الأدباء بقلوبهم الشريدة إلى وطنها المأنوس بين قلوب قومهم بعد طول انتظار للوفاء والبر والنبل ما يثير شهوة الفضول والعجب الأبله ، لا يفهم الأدب إلا فهماً بوهيمياً ، ولا ينتج فيه إلا ضرباً من الكلام ينهمك فيه الطابع ، والمصحح والناشر ، والناقد ، ليعالج به أخيراً ملل نافه ... !

إن هذا الذي كتب في اتجاه رجال الأدب في العصر الحديث لا نتهمه بالمغالطة حين زعم ثانية أن تأريخ عصر النبوة رجعية ، إذ كانت المغالطة مطوية على ذكاء وفهم في الواقع وإن لم يكن ذكاء شريفاً ، وإنما نتهمه بالغلط الذي لا يرادف التجاهل ولكن يرادف لفظاً آخر . ما معنى الرجعية ؟ أليست هي الانتكاس والتقهقر ، وإيثار الأدنى على الأعلى ؟ فأي سمو وقع دونه الرجال

الذين يؤرخون عصر النبوة ؟ وأية فكرة أو حقيقة تكشفها دراسة هذا العصر تنحط مرتبة عما تكشفه دراساتهم الأخرى فى موضوعات أخرى ؟ وأى شر تبتلى به حياتنا العقلية — ودع عنك حياتنا الوجدانية التى هى محور كل عمل أدبى — إذا أضيفت هذه الدراسة إلى سائر الدراسات التى استبدت بأقلام الكتاب منذ كانت لهم أقلام ؟ ألا تجد عقولنا فيها من عافية الفكر وأريحيته ما يتلمسه الضمير الإنسانى فى كل ثقافة كائنة ما كانت ليصح به ويترعرع ويزكو ؟ !

هذه أسئلة لا تطلب جوابها من أحد ، ولا تستجديه ، فهو ملء كل نفس تفهم « الأدب » ولا تزرى بقدره . لا ، بل إنه إذا كان كل شىء فى الحياة يتشكل ويتطور ، لكى لا ينبو عن طبيعة جوه ، ومقتضيات بيئته ، فما بد من أن يتحدث الأدب فى كل عهد بلغته ، ويتوخى من هذه اللغة ما يشوق الأذن الماثلة ، ويجاوب الحنين السارى ، ويعجل البعث المرتقب ، ونحن نعيش فى حقبة من تاريخنا لا يصلح لها إلا هذا ، فلو اشتغل الأدب بما يبعد كثيراً أو قليلاً عن هذا النهج لكان ملتوياً على روح الشعب ، جامداً عن مجاوبته ، وتلبية حاجته ، ومثله فى هذه الحالة — وفى المنطق البوهيمى — كمثل اللحن الناعم النائم تعزفه لجندىّ راحل إلى الجبهة ! ...

فأى غلط بعد غلط يتعفن به منطق فرح به صاحبه فرحاً مضحكاً وهو يناقش « العقاد » فى بعض ما كتب ! نعم لقد كان يبدو فى سياق فرحه ذاك أن منطقه لا يثقبه الرصاص نفسه !

كم اشتغل المستشرقون بتأريخ عصر النبوة ، وهذه حقيقة معروفة نود أن نوجه إلى منطق صاحبنا سؤالاً خاصاً بها ، وهو سؤال أخير نضيفه إلى تلك الأسئلة المخيفة التى وجهها إليه الدكتور فى خلال درسه القيم ، والتى تتضمنها هذه الفقرة بالذات : « لم يقل أحد إن هيكل كان رجعياً حين ترجم لجان جاك روسّو ، ولم يقل أحد إن العقاد كان رجعياً حين ترجم لابن الرومى ، ولا قال قائل برجعية طه حسين حين ترجم لأبى العلاء ، ولكن الرجعية أصابت هؤلاء الأساتذة حين شغلوا أنفسهم بتأريخ عصر النبوة ! ! لأنه مصدر من المصادر الدينية الخ » أإذا اشتغل المستشرقون بهذا الموضوع ومثله ؛ وكتب فيه كتاب أوروبيون — وكم حدث ويحدث — يكون ذلك أيضاً « رجعية » و « تودداً للجمهور المصرى » ؟ ! أم ينعت ذلك عند صاحبنا ومنطقه العتيد بالفحولة العقلية ، والثقافة الإنسانية ، وما إليهما من النعوت التى تكبر على الرجعية ، أو الرياء ، أو اللغو الذى تكرمنا عن مناقشته والذى سماه إيمان المقرب من اليوم الآخر ؟ !

ندع الآن المنطق العتيد يحصى قائمة الخسائر التى نزلت به ، ونحن — فى نفس الوقت - على استعداد لكى نضيف إلى هذه القائمة أرقاماً أخرى ، نقول له ذلك قبل أن يتعجل فينشر مقالاً أو بعبارة أخرى — بلاغاً يزعم فيه أن الخسائر طفيفة ! !

وبعد ، فلم يفرغ درس الدكتور من نواح أخرى ذات بال ، فحسبنا ذلك اليوم ، وإلى فرصة قريبة .

(الأقصر) اسماعيل مظهر

ابنة الطحان

للدوق ألفريد دينيسون

إنها ابنة الطحان ، وقد نمت وتطورت حتى غدت محبوبة فتانة . فيا ليتنى جوهرة فى القرط الذى يرتجف معلقاً فى أذنها ، لأننى إذ ذاك وأنا فى حلقة من ذهب أمُسّ رقبتها البيضاء الدافئة ليل نهار .

أو ليتنى النطاق الذى يحيط بخصرها الدقيق الرشيق فأحس بضربات قلبها فى ساعات الحزن وأويقات الراحة ، وأعلم ما إذا كانت الدقات متئدة منتظمة ، وأحيط بها من جميع أطرافها ضاغطاً عليها بحنان !

أو ليتنى حلي معلقة فى رقبتها فأرتفع وأهبط بانتظام على صدرها البض ، مع تصاعد ضحكاتها وزفراتها ، وأستقر فى مكانى هادئاً جداً بحيث لا تخلعنى حتى عند ما تذهب لتنام !

(بغداد) صفاء خلوصى